

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

بيان دلائل
الإرسال، بعد
ذكر الرُّسل،
رموز القدوة
والكمال

لَمَّا بَيَّنَّ ﷺ لَهُمْ أَنَّهُ مَا أُرْسِلَ رَسُولًا إِلَى قَوْمٍ إِلَّا وَهُوَ رَجُلٌ، إِذِ الْمَلَائِكَةُ لَا تُرْسَلُ كَأَنْبِيَاءَ إِلَى الْبَشَرِ، وَلَمَّا كَانَتْ رُسُلُ الْمُلُوكِ تَقْتَرِنُ بِمَا يُعْرِفُ بِهِ صَدُقُهُمْ؛ قَالَ ﷺ جَوَابًا لِمَنْ كَانَتْهُ قَالَ: بِأَيِّ دَلَالَةٍ أُرْسِلُوا؟ فَقَالَ: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾، وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَعْظَمَ الْأَدَلَّةِ، أَشَارَ إِلَيْهِ ﷺ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾⁽¹⁾، "لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالْأَحْكَامِ، وَتَدْعُوهُمْ إِلَى التَّدَبُّرِ فِيهِ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ، وَيَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ، وَيَدْرِكُونَ أَسْرَارَهُ وَأَهْدَافَهُ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَنْزَلَ لَخَيْرِهِمْ وَمَصْلَحَتِهِمْ"⁽²⁾.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: أَصْلُ الْكَلِمَةِ مِنَ الْبَيِّنِ، وَهُوَ بَعْدُ الشَّيْءِ وَانْكَشَافُهُ، وَالْبَيِّنُ الْفِرَاقُ؛ يُقَالُ: بَانَ يَبِينُ بَيِّنًا وَبَيِّنُونَ، وَالْبَيُونُ: الْبُتْرُ الْبَعِيدَةُ الْقَعْرِ⁽³⁾، وَالْبَيِّنَةُ: الْأَمْرُ الْوَاضِحُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ [الأنعام: 57]، أَي: أَنَا عَلَى أَمْرٍ وَاضِحٍ ظَاهِرٍ، وَالْبَيِّنَةُ أَيْضًا: الْحُجَّةُ، وَمِنْهُ: "الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعَى"⁽⁴⁾؛ لِأَنَّ بِهَا يَنْكَشِفُ الْحَقُّ وَيَتَّضِحُ، وَالْبَيِّنَةُ كَذَلِكَ: الدَّلَالَةُ الْوَاضِحَةُ، عَقْلِيَّةٌ كَانَتْ أَوْ حِسِّيَّةً⁽⁵⁾، وَالْبَيَانُ: التَّوْضِيحُ وَالْكَشْفُ، يُقَالُ: بَانَ الشَّيْءُ وَأَبَانَ: إِذَا اتَّضَحَ وَانْكَشَفَ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 167/11.

(2) إبراهيم القطان، تيسير التفسير: 167/11.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).

(4) أخرجه الترمذ في سننه، برقم: (1341) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، والبيهقي في السنن

الصغرى، برقم: (3386)، وقد حسن إسناده النووي في أربعينه، وابن حجر في الفتح.

(5) السمين الحلي، عمدة الحفاظ: (بين).

وَقُلَانُ أَتَيْنُ مِنْ قُلَانٍ: أَي: أَوْضَحَ كَلَامًا مِنْهُ⁽¹⁾، والمقصود بالبَيِّنَاتِ فِي الْآيَةِ جَمْعُ بَيِّنَةٍ، وَهِيَ الْحُجَّةُ وَالذَّلِيلُ، والمراد به: دَلَائِلُ الصَّدَقِ مِنْ مُعْجَزَاتٍ أَوْ أَدِلَّةٍ عَقْلِيَّةٍ⁽²⁾، وقال أُمِّيَّةُ بن أَبِي الصَّلْتِ⁽³⁾:

إِنَّ آيَاتِ رَبَّنَا بَيِّنَاتٌ *** مَا يُمَارِي فِيهِنَّ إِلَّا الْكَفُورُ

حَبَسَ الْفِيلَ بِالْمُعَمَّسِ حَتَّى *** ظَلَّ يَحْبُو كَأَنَّهُ مَعْقُورُ

(2) ﴿وَالزُّبُرُ﴾: أَصْلُ (زَبَرَ) يَدُلُّ عَلَى قِرَاءَةٍ وَكِتَابَةٍ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، يُقَالُ: زَبَرْتُ الْكِتَابَ، إِذَا كَتَبْتَهُ، وَمِنْهُ الزُّبُورُ⁽⁴⁾، وَزَبَرْتُ الْكِتَابَ: كَتَبْتُهُ كِتَابَةً غَلِيظَةً، وَكُلُّ كِتَابٍ غَلِيظٍ الْكِتَابَةُ يُقَالُ لَهُ: زَبُورٌ، وَخُصَّ الزُّبُورُ بِالْكِتَابِ الْمُنْزَلِ عَلَى دَاوُودَ ﷺ، وَالزُّبُرُ: الْكُتُبُ الَّتِي كُتِبَ فِيهَا مَا أُوحِيَ إِلَى الرُّسُلِ؛ مِثْلُ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَالتَّوْرَةِ، وَمَا كُتِبَ الْحَوَارِيُّونَ مِنَ الْوَحْيِ إِلَى عِيسَى ﷺ، وَإِنْ لَمْ يَكُتُبْهُ عِيسَى⁽⁵⁾، وَرَبَّمَا قَالُوا: زَبَرْتُهُ، إِذَا قَرَأْتَهُ، وَقِيلَ: بَلِ الزُّبُورُ كُلُّ كِتَابٍ يَصْعُبُ الْوُقُوفُ عَلَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ، قَالَ: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾⁽⁶⁾ [الشُّعْرَاءُ: 196]، وَالْمَقْصُودُ بِالزُّبُرِ فِي الْآيَةِ: جَمْعُ زَبُورٍ، وَهُوَ فَعُولٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، أَي: مَزَبُورٌ، بِمَعْنَى مَخْطُوطٍ، وَالْمَرَادُ بِهَا: كُتُبُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، مِمَّا يَتَضَمَّنُ مَوَاعِظَ وَتَذَكِيرًا، مِثْلَ كِتَابِ دَاوُودَ وَالْإِنْجِيلِ⁽⁷⁾.

(3) ﴿الذِّكْرُ﴾: أَصْلُ الذَّكَرِ: الْحِفْظُ الَّذِي تَذْكُرُهُ، وَهُوَ خِلَافُ النِّسْيَانِ⁽⁸⁾، وَهُوَ أَيْضًا: جَزْئِي الشَّيْءِ عَلَى لِسَانِكَ⁽⁹⁾، وَالذِّكْرُ: الصِّيتُ وَالتَّنَاءُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿صَّ وَالْفُرْعَانِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: 1]، أَي: ذِي الشَّرَفِ⁽¹⁰⁾، وَالذِّكْرُ: الْكِتَابُ الَّذِي فِيهِ تَفْصِيلُ الدِّينِ، وَكُلُّ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ ذِكْرٌ⁽¹¹⁾، وَالذِّكْرُ: الصَّلَاةُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالدُّعَاءُ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 162/14.

(3) الذينوري، للجالسة وجواهر العلم: 86/4.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زبر).

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 162/14.

(6) الخليل، العين، والزأغب، للفردات، والسَّمِين الحلبِي، عُمدَةُ الْحِفَاطِ: (زبر).

(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 186/4.

(8) الأزهري، تهذيب اللغة، والمحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).

(9) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (ذكر).

(10) ابن عباد، المحيط في اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).

(11) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (ذكر).

والشُّكْرُ، والطَّاعَةُ⁽¹⁾، والمقصود بالذكر في الآية: الكلامُ الموحى به لِيُتْلَى وَيُكْرَرَ، والمُرَادُ به في الآية القرآن الكريم⁽²⁾.

(4) ﴿لِتَبَيَّنَ﴾: أصل الكلمة مِنَ البَيِّنِ، وهو بَعْدُ الشَّيْءِ وَانْكِشَافُهُ⁽³⁾، والبَيِّنَةُ: الأمرُ الواضح، ومنه قوله: ﴿إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: 57]، والتَّبَيُّنُ: الإيضاح، والوُضُوحُ⁽⁴⁾، والبيان: التَّوْضِيحُ والكَشْفُ⁽⁵⁾، والمقصود بالتبيين في الآية: إيضاح المعنى، والمُرَادُ به: تَبَيُّنُ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْمَعَانِي⁽⁶⁾.

(5) ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾: مِنْ (فَكَرَ): وهو تَرَدُّدُ الْقَلْبِ فِي الشَّيْءِ. يُقَالُ: تَفَكَّرَ، إِذَا رَدَّدَ قَلْبُهُ مُعْتَبِرًا، وَرَجُلٌ فَكِيرٌ: كَثِيرُ الْفِكْرِ⁽⁷⁾، وَالْفِكْرَةُ: قُوَّةٌ مَطْرُقَةٌ لِلْعِلْمِ إِلَى الْمَعْلُومِ، وَالتَّفَكُّرُ: جَوْلَانُ تِلْكَ الْقُوَّةِ بِحَسَبِ نَظَرِ الْعَقْلِ، وَذَلِكَ لِلإِنْسَانِ دُونَ الْحَيَوَانِ، وَلَا يُقَالُ إِلَّا فِيمَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ صُورَةٌ فِي الْقَلْبِ⁽⁸⁾، وَأَخْرَجَ ابْنُ حَبَّانٍ عَنْ عَلِيٍّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قَالَ: "لَا عِبَادَةَ كَالْتَّفَكُّرِ"، أَي: لِأَنَّهُ الْمَخْصُوصُ بِالْقَلْبِ، وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْخَلْقِ⁽⁹⁾، وَالْمَقْصُودُ بِالتَّفَكُّرِ فِي الْآيَةِ: تَكْلُفُ الْفِكْرِ، وَهُوَ مَعَالَجَةُ الْفِكْرِ، وَمُعَاوَدَةُ التَّدَبُّرِ فِي دَلَالَةِ الْأَدِلَّةِ، عَلَى الْحَقَائِقِ⁽¹⁰⁾.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

هذه الآية تكملة للآية السابقة؛ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْحُجَجِ وَالْكِتَابِ، وَأَنْزَلَ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ ﷺ الْقُرْآنَ؛ لِتَوْضِيحِ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ

نزل القرآن
تبييناً، بمحكم
الآيات، على
غرار الكتب
المؤيدة بالبينات

(1) الخليل، العين، والأزهرى، تهذيب اللغة: (ذكر).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16 / 14.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (بين).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 164 / 14.

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، للحكم: (فكر).

(8) الرَّاغِب، المفردات: (فكر).

(9) ابن علان، دليل الفالحين: 295 / 2.

(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26 / 24.

اللَّهُ إِلَيْهِمْ فِيهِ - لَفْظًا: بِتَلَاوُتِهِ، وَمَعْنَى: بِتَفْسِيرِهِ، وَبَيَانِ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ مِنْهُ - ، وَتَفَصَّلَ لَهُمْ بِسُنَّتِكَ الْقَوْلِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ مَا أَجْمَلَ مِنْ أَحْكَامِهِ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْقُرْآنَ؛ كَيْ يَتَفَكَّرَ النَّاسُ فِي آيَاتِهِ، وَيَعْتَبِرُوا بِهَا وَيَتَّعِظُوا، فَيَهْتَدُوا بِالْعَمَلِ بِهَا⁽¹⁾.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

بلادة الإيجاز بالحذف:

قوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾، العامل فيه قوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾، والتقدير: وما أرسلنا بالبيّنات والزُّبر، أي: بالبراهين والكتب، إلّا رجالاً نوحى إليهم، وقيل: إنّ في الآية إضماراً وحذفاً، والتقدير: أرسلناهم بالبيّنات⁽²⁾، فالتّظلم يومئ بأنّ هناك محذوفاً في الكلام، حتّى يستقيم المعنى، وهذا المحذوف يدلّ عليه المذكور قبله، في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ يعني: إرسالهم بالبيّنات والزُّبر، وقد أفاد هذا الحذف، التّلبّس بما بعد المحذوف، أي: جاء هؤلاء الأنبياء بالمعجزات الباهرات، وبالكتب المنزّلة للهداية، فيكون المعنى: رجالاً مُتَلَبِّسين بالبيّنات⁽³⁾.

دلالة الباء ومرجع تعلّقها:

الباء للمصاحبة، أي: مصحوبين بالبيّنات والزُّبر، فالبيّنات دلائل الصّدق، من معجزات أو أدلّة عقلية، وقد اجتمع ذلك في القرآن، وافترق بين الرُّسل الأوّلين، كما تفرّق منه كثيرٌ لرسولنا ﷺ، ويحتمل أن تتعلّق الباء في قوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾، بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾، داخلاً تحت حُكْم الاستثناء مع ﴿رِجَالًا﴾، أي: (وما

إفادة التّلبّس بما بعد المحذوف، وبيان ارتباط الآية بما قبلها، وصليتها بسابقتها

الدّلالة على المصاحبة وقوّة التّلبّس بالرسول، وما يوحى إليهم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14 / 232، والخازن، لباب التّأويل: 3 / 79، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4 / 574.

(2) النّعالبي، الجواهر الحسان: 3 / 420.

(3) القدومي، التفسير البياني، ص: 89.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14 / 162.

أَرْسَلْنَا إِلَّا رِجَالًا بِالْبَيِّنَاتِ (مَا صَرَبْتُ إِلَّا رِجَالًا بِالسَّوْطِ) ، كَقَوْلِكَ : (مَا صَرَبْتُ إِلَّا رِجَالًا بِالسَّوْطِ) ،
لِأَنَّ أَصْلَهُ : (صَرَبْتُ رِجَالًا بِالسَّوْطِ) ، وَقَدْ تَتَعَلَّقُ بِـ ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ مُضْمَرًا ،
دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ ، كَأَنَّهُ قِيلَ : بِمِ أَرْسَلُوا ؟ قِيلَ : بِالْبَيِّنَاتِ ، أَوْ تَتَعَلَّقُ بِـ
﴿ نُوحِي ﴾ ، أَي : (نُوحِي إِلَيْهِم بِالْبَيِّنَاتِ)⁽¹⁾ .

بلاغة التقديم والتأخير:

كان السِّياق يقتضي: (وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزُّبر إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ، وَلَكِنَّ
بِلاغَةَ التَّقديم والتَّأخير في القرآن ، اقْتَضَتْ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ : ﴿ وَمَا
أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ⁽²⁾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ؛ وَذَلِكَ لِنُكِّتَ بِلاغِيَّةً جَلِيلَةً ، وَهِيَ
التَّقديم للعناية والاهتمام بالمقدَّم ، وَلَا سِيَّما أَنَّ الْمَقَامَ فِي الرَّدِّ عَلَى
مُشْرِكِي مَكَّةَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا بَعَثَةَ الرُّسُلِ مِنَ الْبَشَرِ ، فَاقْتَضَى الْحَالُ
أَنْ يُقَدَّمَ لَهُمْ فِي الْكَلَامِ ، جَمْلَةٌ : ﴿ إِلَّا رِجَالًا ﴾ ؛ لِأَنَّهُ بِهَا أَعْنَى ، وَهُوَ
بِبَيَانِهَا أَهْمٌ ، وَهِيَ لَهُمْ مُحِطُّ الْقَصْدِ مِنَ الْحَدِيثِ ، لِأَنَّ الْغَرَضَ
مُتَعَلِّقٌ بِبَيَانِهَا ، فَبَادَرَ إِلَى ذِكْرِهَا ؛ لِإِشْعَارِ بَأَنَّ هَذِهِ هِيَ الْمَطْلُوبُ
الْأَهَمُّ⁽²⁾ ؛ وَفِي تَأْخِيرِ ذِكْرِ الْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ، تَشْوِيقٌ لِهَذَا الْمُؤَخَّرِ الْمُبَيَّنِّ
لِلنُّوحِي الْمُنْزَلِ .

توجيه التشابه اللفظي:

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ
الْمُنِيرِ ﴾ ⁽¹⁾ [184] ، وَقَالَ هُنَا ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾ وَفِي سُورَةِ فَاطِرٍ : ﴿ جَاءَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ ⁽²⁾ [25] ، وَلِسَائِلُ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ
اِخْتِلَافِ الْآيَتَيْنِ ، فِي إِدْخَالِ الْبَاءِ فِي مَوْضِعٍ ، وَحَذْفِهَا مِنْهُ فِي مَوْضِعٍ .

(1) الزَّمَخْشَرِيُّ ، الْكَشَافُ : 607 / 2 ، وَالشَّنَقِيطِيُّ ، أَضْوَاءُ الْبَيَانِ : 380 / 2 .

(2) الْقُرْطُبِيُّ ، الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ : 108 / 10 ، وَابْنُ الْجَوْزِيِّ ، زَادُ الْمَسِيرِ : 561 / 2 ، وَهُودُ بْنُ مُحْكَمٍ ،

تَفْسِيرُ كِتَابِ اللَّهِ الْعَزِيزِ : 367 / 2 .

العناية
والاهتمام
بالمقدَّم، وإفادة
التشويق
للمؤخَّر

قصْدُ الاختصارِ
في اللَّفْظِ مَوْضِعِ
الحذف، وتوفية
اللفظ حَقَّه في
مَوْضِعِ الزِّيَادَةِ

والجواب أن يُقال: إنَّ الزُّبر والكِتاب في سورة آل عمران، وقعا في كلام بُنِيَ على الاختصار والاكتفاء بالقليل عن الكثير، مع وضوح المعنى، وكان أوَّل ذلك قوله: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ [آل عمران: 184]، والتَّقدير: (فإن يكذبوك)، فوضَّع الماضي الذي هو أخفُّ موضع المستقبل الذي هو أثقل، بدلالة (إنَّ) التي للشرط، وحصول الخِفة في اللفظ، ثمَّ إنَّ الفعل الذي جاء في جواب الشرط بُنِيَ للمفعول، ولم يُسمَّ فاعله، فكان الاختيار أن يُجعل آخر الكلام كأوَّله، بالاكتفاء بما قلَّ عمَّا كثر منه، مع وضوح المعنى، فالكلام في هذه السورة وقع مبنياً على الاختصار. وأمَّا في موضع النحل وفاطر؛ فلم يحذف منه ما حُذف مِنَ الأوَّل، فلما قُصدَ توفية اللفظ حقَّه، أتبع آخر الكلام أوَّله في توفية كلِّ معمولٍ في عامله، وهي حروف الجرِّ التي استوفتها المجرورات، فلذلك اختلفت⁽¹⁾.

فائدة العطف:

لما كان القرآن أعظم الأدلَّة، أشار إلى ذلك بذكره مدلولاً على غيره مِنَ المعجزات بواو العطف، فقال عاطفاً على ما تقدِّره: وكذلك أرسلناكَ بالمعجزاتِ الباهراتِ ﴿وَأَنْزَلْنَا﴾⁽²⁾، فلما اتَّضحت الحُجَّة بشواهد التَّاريخ الذي لا يُنكَرُ، ذُكرت النتيجة المقصودة، وهو أنَّ ما أنزل على محمَّد ﷺ، إنَّما هو ذِكرٌ، وليس أساطير الأوَّلِينَ⁽³⁾.

دلالة إضافة الإنزال إلى نون العظمة:

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا﴾ أي: بما لنا مِنَ العظمة⁽⁴⁾، وفي هذه الإضافة بيانٌ لعظيم شأن الإنزال، والقرآن المنزل مِنَ الرَّبِّ العظيم، المنزل له على قلب الرِّسول الكريم، عليه أفضل الصَّلواتِ وأتمُّ التَّسليم.

الإشارة إلى
القرآن الكريم،
كونه أعظم
الأدلَّة، بعد
ذِكْرِ شواهد
التَّاريخية

تعظيم أمر
الإنزال، وتقخير
شأنه، بما
يتناسب مع
عظمة القرآن،
وجليل قدره

(1) الإسكافي، دُرَّة التنزيل: 402/1، والكرماني، البرهان، ص: 94.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/168.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/162.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 11/168.

دلالة الالتفات بالخطاب إلى المفرد:

قوله تعالى: ﴿إِلَيْكَ﴾، أي: وأنت أشرف الخلق⁽¹⁾، وهو التفات إلى النبي الكريم، بهذا الخطاب الكريم من رب العالمين⁽²⁾، فالقرآن وإن كان فيه أحكام الخلق، فالخطاب معك، وأنت صاحب البيان لهم بما أنزل عليك، فإنهم في مقامات الوحشة، وأنت في محل الحضور، ومحل الأمان، فبيان الكتاب ما تبينه أنت، وآداب الشريعة ما ترسمه؛ لأنك أنت الأمين في جميع الأحوال، ولا يؤتمن على أسرار الحق إلا الأمناء⁽³⁾.

بلاغة تقديم الجار والمجرور على المفعول به:

جاء التعبير بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾، ولم يأت بـ (وأنزلنا الذكر إليك)؛ حيث قُدمَ المتعلق - وهو الجار والمجرور - على المفعول؛ للاهتمام بضمير المخاطب⁽⁴⁾، واعتناء بالنبي ﷺ، وإظهاراً لشرفه، وتأنيساً له⁽⁵⁾.

دلالة (أل) وفائدتها في لفظ ﴿الذِّكْرُ﴾:

الذِّكْرُ: الكلام الذي شأنه أن يُذكر، أي: يُتلى ويُكرَّر، فأنزل ليقراه الناس، ويتلوه تَكَرَّارًا؛ ليتذكروا ما اشتمل عليه⁽⁶⁾، والذِّكْرُ هنا هو القرآن الكريم، وسُمي القرآن ذِكْرًا؛ لأنه موعظة وتنبية للغافلين، بما فيه من آيات الله، ما يُذكر الناس بالله ﷻ، ويلفت قلوبهم وعقولهم إليه؛ ولأنه مُذكر بالأنبياء السابقين ورسائلهم، ما نُسِخَ منها وما بقي، ولأنه الذِّكْرُ الدائم إلى يوم القيامة⁽⁷⁾،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 168.

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/ 301.

(3) السلمي، حقائق التفسير، ص: 115.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 163.

(5) القدومي، التفسير البياني، ص: 89.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 163.

(7) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 228، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4184، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/ 301.

تشريف النبي
بالإقبال
عليه بالخطاب

الاعتناء
بالنبي ﷺ،
وإظهار شرفه،
وتأنيسه، تميز
ورفعة عند الله

إفادة عموم
التذكير بالمواعظ
وقصاص
السابقين

فهو مِنَ التَّذْكِيرِ، إمَّا بمعنى الوَعْظِ، أو بمعنى الإيقاظِ مِنْ سِنَةِ الغَفْلَةِ، وإطلاقه على القرآن: إمَّا لاشتماله على ما ذُكِرَ، أو لأنَّه سَبَبٌ له⁽¹⁾، فهو الكتابُ المَوْجِبُ للذِّكْرِ، المُعْلِي للقدَرِ، الموصِلُ إلى منازل الشَّرَفِ⁽²⁾.

سِرُّ ذِكْرِ (القرآن)، بعد ذكر (البَيِّنَات) و(الزُّبُر):

في الاقتصار على إنزال الذِّكْرِ، عَقِبَ قوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾: إيماءٌ إلى أَنَّ الكتابَ الْمُنَزَّلَ على مُحَمَّدٍ ﷺ، هو بَيِّنَةٌ وزبورٌ معًا، أي: هو معجزةٌ وكتابٌ شَرَعَ، وذلك مِنْ مزايا القرآن التي لم يُشاركه فيها كتابٌ آخَرُ، ولا معجزةٌ أُخْرَى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [العنكبوت: 50 - 51]⁽³⁾.

فائدة لامِ الْعِلَّةِ، في قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾:

اللامُ في ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ من قوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ للتعليل، أي: أنزل الله القرآن على سيدنا مُحَمَّدٍ ﷺ حتَّى يبيِّنَهُ للنَّاسِ، واللامُ على هذا الوجه لِذِكْرِ الْعِلَّةِ الْأَصْلِيَّةِ في إنزال القرآن⁽⁴⁾، والمعنى: أنزلنا إليك أَيُّهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ القرآنَ، لتُعرِّفَ النَّاسَ بحقائق وأسرارِ ما أُنْزِلَ لهدايتهم في هذا القرآن، من تشريعاتٍ وآدابٍ وأحكامٍ ومواعظٍ، لعلَّهم بهذا التَّعْرِيفِ والتَّبْيِينِ يتفكَّرون فيما أرشدتهم إليه، ويعملون بهديكَ، ويقتدون بك في أقوالِكَ وأفعالِكَ، وبذلك يَفُوزُونَ وَيَسْعَدُونَ⁽⁵⁾.

الإيماءُ إلى أَنَّ
القرآنَ الكريمَ
هو بَيِّنَةٌ وزبورٌ
معًا

ذُكِرَ الْعِلَّةُ
الأصْلِيَّةُ في إنزال
القرآنَ الكريمَ،
إبرازٌ لَهْدِي
القرآنَ وجلالِهِ

(1) الألوسي، روح المعاني: 7/ 389.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 168.

(3) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوِيرُ: 14/ 163.

(4) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوِيرُ: 14/ 163.

(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 158.

دلالة الفعل المضارع:

إفادة التَّجَدُّدِ
والاستمرار في
البيان بِحَسَبِ
تَنْزُلِ الآياتِ

جاء بالفعل المضارع (تُبَيِّنَ) في قوله: ﴿لَتُبَيِّنَنَّ﴾؛ لإفادة تَجَدُّدِ البيان واستمراره مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، بِحَسَبِ تَنْزُلِ الآياتِ طيلةَ زمنِ النَّبُوَّةِ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، مُنْجَمًا فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً، بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ وَالْأَحْدَاثِ⁽¹⁾.

دلالة إسناده مُهَمَّةٌ التَّبَيِّنُ لِلرَّسُولِ ﷺ:

اعتبار كونه
المُبَيِّنَ لِلنَّاسِ هَذَا
البيان العظيم

إِسْنَادُ التَّبَيِّنِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ الْمُبَيِّنُ لِلنَّاسِ هَذَا الْبَيَانُ⁽²⁾، وَقَدْ كَلَّمَهُ اللَّهُ بِالتَّبَيِّنِ لِلنَّاسِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ الْمُبِينِ، وَالذِّكْرَ الْحَكِيمَ، "أَي: الْقُرْآنَ الَّذِي فِيهِ ذِكْرٌ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ، مِنْ أُمُورِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَهَذَا شَامِلٌ لَتَبَيِّنِ الْفَاضِلَةِ، وَتَبَيِّنِ مَعَانِيهِ"⁽³⁾، وَالرَّسُولُ الْمُبَيِّنُ مُؤْتَمَنٌ بِأَمْرِ اللَّهِ؛ لِتَحْقِيقِ مُهِمَّتِهِ الْإِبْلَغِيَّةِ الْمُنَاطَةِ بِهِ، مِنْ أَجْلِ دَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى الْحَقِّ، وَهَدَايَتِهِمْ إِلَى الرَّشَادِ، بِأَمَانَةٍ وَمِصْدَاقِيَّةٍ وَنَزَاهَةٍ.

دلالة (أَل) فِي لَفْظِ ﴿لِلنَّاسِ﴾:

إفادة العموم،
وبيان عالميَّة
هَذَا الدِّينِ

﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ﴾ كَافَّةً بِمَا أَعْطَاكَ اللَّهُ مِنَ الْفَهْمِ الَّذِي فَقَّتَ فِيهِ جَمِيعَ الْخَلْقِ، وَاللِّسَانَ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْأَلْسِنَةِ وَأَفْصَحُهَا، وَقَدْ أَوْصَلَكَ اللَّهُ فِيهِ إِلَى رُتَبَةٍ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا أَحَدٌ⁽⁴⁾، فَرِسَالَةُ الْإِسْلَامِ عَالَمِيَّةٌ، مُخَاطَبٌ بِهَا أَهْلُ مَكَّةَ ابْتِدَاءً، وَمُخَاطَبٌ بِهَا كُلُّ الْبَشَرِ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ، وَلِذَا جَاءَ التَّعْبِيرُ ﴿لِلنَّاسِ﴾، فَالْتَّعْرِيفُ لِلْعُمُومِ⁽⁵⁾.

سِرُّ الْمُخَابَرَةِ بَيْنَ ﴿وَأَنْزَلْنَا﴾، وَ﴿نُزِّلَ﴾:

لَا يُنْزَلُ الْوَحْيُ
إِلَّا عَلَى النَّبِيِّ
المُصْطَفَى؛
لِتَلْقَى الْبَلَاغَ
وإِصَالَهُ

فِي مُخَاطَبَةِ النَّبِيِّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾، وَمُخَاطَبَةِ

(1) الْهَرَوِيُّ، حُدُودُ الرُّوحِ وَالزَّيْحَانِ: 241 / 15.

(2) ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 163 / 14.

(3) السَّعْدِيُّ، تَبْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ، ص: 441.

(4) الْبِقَاعِيُّ، نِظْمُ الدُّرَرِ: 168 / 11.

(5) ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 163 / 14، وَالْقُدُومِيُّ، التَّفْسِيرُ الْبَيَانِيُّ، ص: 89.

النَّاسَ بقوله سبحانه: ﴿نَزَلَ إِلَيْهِمْ﴾، تفرقةً مِنْ وجهين؛ الأول: أَنَّ النَّبِيَّ الكريمَ خُوطِبَ خطاباً مُباشِراً مِنَ الْحَقِّ ﷻ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾، على حين أَنَّ النَّاسَ خُوطِبُوا بفعلٍ لم يُذَكَّر فاعله، هكذا: ﴿نَزَلَ إِلَيْهِمْ﴾؛ لأنَّ التَّنْزِيلَ لم يكن مُباشِراً لهم، بل كان بوساطة النَّبِيِّ ﷺ، الَّذي تلقاه بدوره عن طريق المَلَك، والثَّاني: أَنَّ الفعلَ (أَنزَلَ) يُفيدُ الجَمْعَ، على حين أَنَّ الفعلَ (نَزَلَ) يُفيدُ التَّفَرُّقَ، وهذا هو ما يُشيرُ إليه الحالُّ مِنْ أمرِ القرآنِ بَيْنَ النَّبِيِّ وَبَيْنَ الَّذِينَ تَلَقَّوْهُ مِنْهُ، فَالنَّبِيُّ بالنسبةِ لَهُمْ هو المَصْدَرُ الأوَّلُ الَّذي تَجِيئُهُمْ مِنْهُ آيَاتُ اللَّهِ وَكَلِمَاتُهُ، وَهُمْ يَتَلَقَّوْنَهَا مِنْهُ آيَةً آيَةً، أَوْ آيَاتٍ آيَاتٍ، فَناسَبَ أَنْ يُخاطَبَ النَّبِيُّ ﷺ في مواجَهِتِهِمْ بقوله تعالى في السِّياق الآفِنِ⁽¹⁾.

دلالة ﴿مَا﴾ الموصولة:

قد يكون المرادُ بـ ﴿مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ﴾ الشَّرَائِعُ الَّتِي أَرْسَلَ اللَّهُ بِهَا مُحَمَّدًا ﷺ، لاقتضاء أَنَّ ما صَدَقَ عليه الموصولُ غَيْرُ الذِّكْرِ المُتَقَدِّمِ، إذ لو كان المقصودُ ما أشار إليه بالموصول، لكان مقتضى الظَّاهر أن يقال: (لتبَيَّنَّ للنَّاسِ)، فَجُعِلَ القرآنُ جامعاً لها، ومُبيِّناً لها ببلِغِ نظمه، ووفرةِ معانيه، فيكون في معنى قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ التحل: 89⁽²⁾، ويَحْتَمِلُ أَنْ يُريدَ: (لتُبَيِّنَ القرآنُ بَسْرَدِكَ نَصَّهُ وتعليمه للنَّاسِ)، أَوْ (لتُبَيِّنَ معانيه بتفسير مُشْكِلِهِ)، فيدخلُ في هذا ما بَيَّنَّتْهُ السُّنَّةُ مِنَ الشَّرِيعَةِ⁽³⁾، والمعنى حينها: (فَتَعَرَّفَهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنَ الأحكامِ والشَّرائِعِ، وأحوالِ القُرُونِ المُهلَكَةِ بأفانين العذابِ، جزاءَ عنادِهِمْ معَ أنبيائِهِمْ، وتُبَيِّنَ لَهُمْ ما أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الأحكامِ، وتُفَصِّلَ لَهُمْ ما أَجْمَلَ مِنَ أحكامِ الصَّلَاةِ والزَّكَاةِ)، وغير ذلك ممَّا

شمول بيان
الشَّرائِعِ
وتفصيلها مِنْ
قِبَلِ النَّبِيِّ ﷺ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7 / 301.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14 / 163.

(3) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 1 / 427.

لَمْ يُفَصِّلْهُ بِحَسَبِ مَرَاتِبِهِمْ فِي الاستعداد والفهم لأسرار التشريع⁽¹⁾،
فَبَيَّنَ الْكِتَابَ يُطَلَّبُ مِنَ السُّنَّةِ، وَالْمُبَيِّنُ لَذَلِكَ الْمُجْمَلِ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ⁽²⁾، قَالَ الشُّعْرَاوِيُّ: "جَاءَ الْقُرْآنُ كِتَابَ مُعْجَزَةٍ، وَجَاءَ كِتَابَ مَنْهَجٍ،
إِلَّا أَنَّهُ ذَكَرَ أَصُولَ هَذَا الْمَنْهَجِ فَقَطْ، وَلَمْ يَذْكُرِ التَّعْرِيفَاتِ الْمَنْهَجِيَّةَ
وَالشُّرُوحَ اللَّازِمَةَ لِتَوْضِيحِ هَذَا الْمَنْهَجِ، وَإِلَّا لَطَالَتْ الْمَسْأَلَةُ، وَتَضَخَّمَ
الْقُرْآنُ، وَرَبَّمَا بَعْدَ عَنْ مُرَادِهِ، فَجَاءَ الْقُرْآنُ بِالْأَصُولِ الثَّابِتَةِ، وَتَرَكَ
لِلرَّسُولِ ﷺ مَهْمَةً أَنْ يُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ، وَيُشْرَحَهُ وَيُوضِّحَ مَا فِيهِ"⁽³⁾.

نُكْتَةُ اخْتِيَارِ صِبْغَةِ التَّفْعِيلِ ﴿نُزِّلَ﴾:

التَّفْصِيلُ
وَالْإِيضَاحُ لِمَا نُزِّلَ
مِنَ الْقُرْآنِ مِنْ
عَقَائِدَ وَأَحْكَامَ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: إِنَّ فِي ذَلِكَ الذِّكْرِ مِنَ الْأَحْكَامِ
وَالشَّرَائِعِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ بَيَانًا شَافِيًا، وَهَذَا مَا تُتَبَيَّنُ عَنْهُ
صِبْغَةُ التَّفْعِيلِ⁽⁴⁾، وَهِيَ تَعْنِي: أَنَّ الْوَحْيَ قَدْ وَاكَبَ الْحَيَاةَ فِي أَزْمَاتِهَا
وَتَقَلُّبَاتِهَا، وَسَايَرَ الْأَحْدَاثِ فِي تَمْوِجَاتِهَا وَتَحَوُّلَاتِهَا، فَقَالَ: "وَأَنْزَلْنَا
إِلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ الْقُرْآنَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَقَائِدِ
وَالْأَحْكَامِ، وَتَدْعُوهُمْ إِلَى التَّدَبُّرِ فِيهِ"⁽⁵⁾، وَالنَّاسُ يَجِدُونَ فِي ذَلِكَ
التَّنْزِيلَ، مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي صَلَاحِ عَاجِلِهِمْ وَأَجْلِهِمْ.

سِرُّ تَعْدِيَةِ الْفِعْلِ ﴿نُزِّلَ﴾ بِ(إِلَى):

بَيَانُ الْوَاجِبِ
عَلَى النَّاسِ
فِي اقْتِفَاءِ أَثَرِ
آخِرِ مُرْسَلٍ إِلَى
النَّاسِ

فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، هُوَ
كَذَلِكَ نُزِّلَ إِلَى النَّاسِ، فَهُمْ شُرَكَاءُ لِلنَّبِيِّ فِي هَذَا الْكِتَابِ، وَمَطْلُوبُ
مِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَحْسَبَ أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ هُوَ كِتَابُهُ الْمُنْزَّلُ عَلَيْهِ، يَفْقَهُهُ
وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْعَمَلِ بِهِ، مُقْتَفِيًا فِي هَذَا أَثَرَ النَّبِيِّ،
وَمُشَارِكًا فِي حَمْلِ الرِّسَالَةِ مَعَهُ، فِي حَالِ حَيَاتِهِ أَوْ مِنْ بَعْدِ وَفَاتِهِ⁽⁶⁾.

(1) المرآة، تفسير الرازي: 14 / 89.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10 / 108، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 8 / 158.

(3) الشُّعْرَاوِيُّ، تفسير الشُّعْرَاوِيُّ: 13 / 7958.

(4) إسماعيل حَقِّي، روح البيان: 5 / 37.

(5) إبراهيم القَطَّان، تيسير التفسير: 2 / 317.

(6) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7 / 301.

دلالة الإظهار، في مقام الإضمار:

وقع في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، ما يُسمَّى بوضع المظهر موضع المضمّر، وهو نوع من خروج الكلام على غير مقتضى الظاهر، وقد كان الظاهر من الكلام يقتضي: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ)، إذ الذّكر عينُ المُنزَّل، وإنّما جاء الكلام كما في الآية لُنُكْتَة بلاغيّة؛ لإفادة أنّ إنزال الذّكر إلى النّبي ﷺ، هو إنزاله إلى النّاس، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: 10]⁽¹⁾، وهذا على القول بأن ﴿مَا﴾ راجعة إلى الذّكر كما سبق ذكره في دلالتها.

فائدة زيادة شبه الجملة ﴿إِلَيْهِمْ﴾:

يَتَضَحُّ لقارئ قول الله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، أنّ ذِكْرَ الجارّ والمجرور ﴿إِلَيْهِمْ﴾ في الآية؛ للدلالة على عناية الله بالنّاس، وإنعامه عليهم⁽²⁾.

فائدة الواو في ﴿وَلَعَلَّهُمْ﴾:

جاء حرف العطف (و) في قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لأنّ تَفَكُّرَ النّاسِ بدين الله ﷻ مَقْصِدٌ مُسْتَقِلٌّ، فالنّبي ﷺ مُكَلِّفٌ بتبيين دين الله للنّاس، وهذا هو المقصد الأوّل لإنزال الذّكر - كما في الآية -، والمَقْصِدُ الثّاني لإنزال الذّكر: هو تَفَكُّرُ النّاسِ بهذا المُنزَّل⁽³⁾، فكان العطف بالواو للدلالة على أنّ هذه غايةٌ وثمرَةٌ للنُّزول، كتبيين النّبي ﷺ، فلمّا كان التّقدير: لعَلَّهُمْ بِحُسْنِ بَيَانِكَ يَعْمَلُونَ، عطفَ عليه بيّناً لشرف العِلْمِ قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁽⁴⁾، وفي العطف حكمةٌ أخرى، من

إفادة أنّ إنزال
الذّكر إلى النّبي
المبلّغ، هو إنزاله
إلى النّاس
للعمل به

الدّلالة على
عناية الله
بالنّاس،
وإنعامه عليهم
بالعطاء
القرآني،
والعطاء النبوي

الدّلالة على أنّ
هذه الجملة
غايةٌ وثمرَةٌ
للنُّزول والتّبيين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 163 / 14.

(2) القدومي، التّفسير البياني، ص: 89.

(3) القدومي، التّفسير البياني، ص: 89.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 169 / 11.

حَكَمَ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ، وَهِيَ تَهْيِئَةٌ تَفَكَّرُ النَّاسِ فِيهِ، وَتَأْمُلُهُمْ فِيهِمَا يُقَرِّبُهُمْ إِلَى رِضَا اللَّهِ تَعَالَى (1).

غرض استعمال أداة الرَّجَاءِ (لَعَلَّ):

(لَعَلَّ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لِلرَّجَاءِ، وَالرَّجَاءُ لَيْسَ مِنَ اللَّهِ، وَلَكِنَّ الرَّجَاءَ مِنَ الْخَلْقِ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَالْمَعْنَى: مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَأْمَلُوا وَيَنْظُرُوا فِي حَقَائِقِ الْكَوْنِ، وَأَسْرَارِ الْحَيَاةِ، وَعَبْرِ التَّارِيخِ، فَيَهْتَدُونَ وَيَفُوزُونَ، وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَحْرِصَ عَلَيْهِ قَارِئُ الْقُرْآنِ التَّفَكُّرُ؛ لِأَنَّهُ بِذَلِكَ يَكُونُ قَدْ حَقَّقَ حِكْمَةً مِنْ حَكَمِ إِنْزَالِ هَذَا الْقُرْآنِ.

فائدة حذف متعلّق الفعل ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾:

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فِي عَجَائِبِهِ وَأَسْرَارِهِ، فَيَخُوضُونَ بِسُفْنِ أَفْكَارِهِمْ فِي بَحْرِ مَعَانِيهِ وَأَنْوَارِهِ، فَيَنْتَبَهُونَ لِلْحَقَائِقِ وَالشَّرَائِعِ (2)، فَإِذَا نَظَرُوا أَسَالِيْبَهُ الْفَائِئِقَةَ، وَمَعَانِيَهُ الْعَالِيَةَ الرَّائِقَةَ، وَصَلُوا بِسَبَبِ مَا فُتِحَ لَهُمْ مِنْ أَبْوَابِ الْبَيَانِ (3) إِلَى حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ، وَسَكِينَةِ الْيَقِينِ، حَتَّى يَرْتَقُوا فِي دَرَجَاتِ الْعِبُودِيَّةِ (4)، أَيْ: إِرَادَةَ أَنْ يَتَأْمَلُوا فَيَتَبَهَّوْا لِلْحَقَائِقِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْعَبْرِ، وَيَحْتَرِزُوا عَمَّا يُوْدِّي إِلَى مِثْلِ مَا أَصَابَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْعَذَابِ.

❁ الْفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

الْإِنْزَالُ وَالتَّنْزِيلُ:

الْإِنْزَالُ يُطْلَقُ عَلَى مَا يَكُونُ دَفْعَةً وَاحِدَةً (5)، وَأَمَّا التَّنْزِيلُ فَيُطْلَقُ

(1) ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 14 / 164.

(2) ابْنُ عَجِيبَةَ، الْبَحْرُ لِلدِّيدِ: 3 / 131.

(3) الْبَقَاعِي، نَظْمُ الدُّرَرِ: 11 / 169.

(4) الْقُدُومِيُّ، التَّفْسِيرُ الْبَيَانِيُّ، ص: 89.

(5) السَّمِينُ الْحَلَبِيُّ، عَمْدَةُ الْخَفَاطِ: (نَزَلَ)، وَالْعَسْكَرِيُّ، الْفُرُوقُ الْلُغَوِيَّةُ، ص: 79، وَالْجُرْجَانِيُّ،

التَّعْرِيفَاتُ، ص: 68، وَالشَّهَابُ الْخَفَاجِيُّ، عُنَايَةُ الْقَاضِي وَكَفَايَةُ الرَّاضِي: 1 / 3.

الترجئة في
معرفة دلائل
الإيمان،
للوصول إلى
درجات المهتدين
الفائزين

التفكير في
عجائب وأسرار
القرآن يوصل
العبد إلى
اليقين، ويؤول
به إلى الإيمان

الإنزال دفعي،
ويكون دفعة
واحدة،
والتنزيل
تدريجي،
ويكون مفرقا

على ما يكون مُفَرَّقًا أو تدرجيًّا، فالإنزال دَفْعِيٌّ، والتَّزْيِيلُ تدرجيٌّ، قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۚ﴾ [آل عمران: 3]؛ وهذا لأنَّ حُكْمَ القرآن الكريم مؤبَّدٌ، وهو مناسبٌ لـ (نَزَلَ)؛ فَإِنَّهُ بِنَاءٌ لِلْمَبَالِغَةِ، ولما في التَّزْيِيلِ مِنْ مَعْنَى التَّدرِجِ، فبَيْنَ الْإِنْزَالِ وَالتَّزْيِيلِ عُمُومٌ وَخُصُوصٌ، وَالْإِنْزَالُ أَعَمُّ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى التَّدرِجِ، وَقَدْ لَا يَدُلُّ⁽¹⁾.

وَلَا يُشْكِلُ عَلَى هَذَا الْفَرْقِ، وَقَوَعُ التَّعْبِيرِ عَنِ نَزُولِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِالْفِعْلَيْنِ مَعًا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ نَزُولَيْنِ، دَفْعِيٌّ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَتدرِجِيٌّ مَنْجَمٌ بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ وَالْأَحْدَاثِ⁽²⁾.

يَتَفَكَّرُونَ وَيَتَذَكَّرُونَ:

التَّفَكُّرُ: تَصَرُّفُ الْقَلْبِ بِالنَّظَرِ فِي الدَّلَائِلِ وَمَعَانِي الْأَشْيَاءِ لِيُدْرِكَ الْمَطْلُوبَ⁽³⁾، وَهُوَ سِرَاجُ الْقَلْبِ، يَرَى بِهِ خَيْرَهُ وَشَرَّهُ، وَمَنَافِعَهُ وَمَضَارَّهُ، وَكُلُّ قَلْبٍ لَا تَفَكَّرُ فِيهِ فَهُوَ فِي ظُلُمَاتٍ يَتَخَبَّطُ⁽⁴⁾.

وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَأْتِي طَلَبُ التَّفَكُّرِ إِمَّا بِضَرْبِ مَثَلٍ، حَتَّى يَتَأَمَّلَ الْإِنْسَانُ هَذَا الْمَثَلَ، وَإِمَّا يَكُونُ جَوَابًا عَنْ سُؤَالٍ حَتَّى يَتَفَكَّرَ فِي الْإِجَابَةِ عَنْهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتْنَهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢٤﴾ [يونس: 24]، وَقَالَ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خُدْشًا مُّتَصِدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأُمُثُلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢٥﴾ [الحشر: 21].

التَّذَكُّرُ مَقْصُودُ
التَّفَكُّرِ وَثَمَرَتُهُ،
فَإِذَا فَكَّرَ الْقَلْبُ
تَبَصَّرَ، وَإِذَا
تَبَصَّرَ تَذَكَّرَ

(1) الرَّاغِبُ، الْمُفْرَدَاتُ: (نَزَلَ).

(2) أَبُو شَامَةَ، الْمُرْشِدُ الْوَجِيزُ، ص: 17، وَالسَّيُوطِيُّ، الْإِتْقَانُ: 1/ 146.

(3) الْعَسْكَرِيُّ، الْفُرُوقُ اللَّغَوِيَّةُ، ص: 121، وَالْجِرْجَانِيُّ، التَّعْرِيفَاتُ، ص: 63.

(4) الْجِرْجَانِيُّ، التَّعْرِيفَاتُ، ص: 63.

أَمَّا التَّذَكُّرُ: فهو محاولة النفس استرجاع ما زالَ مِنَ المعلومات⁽¹⁾، ويكون التَّذَكُّرُ للاتِّعَاضِ وأخذِ العِبْرَةِ، قال تعالى: ﴿*وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: 51]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدُّخان: 58].

والتَّفَكُّرُ والتَّذَكُّرُ أصلُ الهدى والفلاح، وهما قُطْبَا السَّعَادَةِ، إِذِ التَّفَكُّرُ طَلِبُ الْقَلْبِ ما ليس حاصلًا مِنَ الْعِلْمِ، والتَّذَكُّرُ استرجاعُ ما زالَ عَنِ الْقَلْبِ، والمتَّفَكِّرُ ينتقل مِنَ الْمُقَدِّمَاتِ والمَبَادِئِ الَّتِي عِنْدَهُ إِلَى الْمَطْلُوبِ الَّذِي يَرِيدُهُ، فَإِذَا ظَفِرَ بِهِ تَحَصَّلَ لَهُ تَذَكُّرٌ بِهِ، وَأَبْصَرَ مَوَاقِعَ الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ، وما ينبغي اجتنابه، فحينها يكون التَّذَكُّرُ؛ فالتَّذَكُّرُ هو مقصودُ التَّفَكُّرِ وَثَمَرَتُهُ، فَإِذَا فَكَّرَ الْقَلْبُ تَبَصَّرَ، وَإِذَا تَبَصَّرَ تَذَكَّرَ⁽²⁾.

(1) الكَفَوِيُّ، الكَلِمَاتُ، ص: 67.

(2) ابن القيم، مفتاح دار السَّعَادَةِ: 1/ 214.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النَّحْل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446 هـ - 2024 م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024 م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النَّحْل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك: 4-23-768-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26: المجلد السادس والعشرون، سورة النَّحْل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 4-23-768-9948-978

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»